عيد السعداء

قصة جديدة

بقلم امينة قطب

لم تكن الشمس قد بزغت عندما شعر بوالدته وهي تنزل من فوق رأسها ، في حذر ، صفيحة الماء في احد اركان الغرفة المهدمة الرطبة التي ينامون فيها ، فوق قطع ممزقة من الخرق والبطاطين وحصير بال قذر .. هذه الخرق والبطاطين التي تأتي بها والدته بين الحين والحين من بعض البيوت التي تتردد عليها للخدمة فيها .. وأدرك عندما شعر بوالدته ان الصباح قد طلع وأن أمه قد جلبت لهم الماء من الصنبور الكائن في ركن قصي من الفناء الواسع الذي تقوم فيه حجرتهم وبعض الحجرات الاخرى التي تماثلها والتي يقطنها اناس آخرون من الفقراء مثلهم . فاعتدل في مكانه وكان والده المقعد ما يزال نائماً وكذلك أخوه الصغير واختاه الطفلتان . وخرجت امه ثانية وبيدها إناء من النحاس البالي لتملأه هو ايضاً بالماء كعادتها كل صباح .

وانطلق هو الى الخارج مسرعاً ويداه تعبثان بأهداب عينيه المتشابكة بما حملت من قذارة وأوساخ . وهناك بجانب الباب الخارجي للفناء وقف يتطلع الى الطريق العام الذي بدأ المارة يتكاثرون فيه . إن اليوم هو عيد الأضحى ، وها هم القصابون يغدون ويروحون ، بعضهم يحمل المدى الطويلة وبعضهم عائد وفي ملابسه آثار الذبائح التي نحروها في بيوت « السعداء » . وفجأة جلس بجانب الباب المتداعي ، فوق الحصى الناعمة والتراب . ومرت في خياله الصغير بضع صور وملأت نفسه أمانٍ شغلته بعض الوقت عن متابعة المارة في الطريق . وحدّث نفسه ببضع كلمات ارتعشت بها شفتاه وملامح وجهه الاسمر النحيل : لو ان والده اليوم كان صحيحاً معافى لاشتغل في اي عمل وقبض اجره ولكان هو اليوم يلبس مع إخوته ثياباً جديدة ، وربما أحذية من تلك التي رآها بالأمس أثناء ان كان صاحبها يرصها أمامه في ركن من أركان الطوار ، والتي نهره الرجل بشدة عندما رآه يقترب منها لكي يراها عن قرب ويرى كيف تلبس وكيف تضم أطرافها .. ولكن والده اليوم مقعد لا يستطيع السير على قدميه بل يزحف زحفاً إذا اراد ان ينتقل من مكان الى مكان . انه هكذا منذ ثلاثة اعوام .. وقطع تفكيره صوت بعض الصبية يمشون مسرعين وهم يذكرون اسماء بعض اللعب التي سيشترونها ، فالتفت اليهم واخذ يتتبعهم بناظريه متفحصاً كل قطعة من ملابسهم وأحذيتهم حتى غابوا عن ناظريه في احد منحنيات الطريق ..

وسمع والدته تناديه فهب من مكانه وأسرع يعدو الى الداخل وكأن قدميه قطع من الطوب الاسود تقذف على الارض هنا وهناك . لقد كان يعرف ان لديهم في هذا اليوم بعض الشاي والسكر وبعض الادم الذي اقتطعوه من عشائهم بالامس لكي يكون لهم إفطاراً شهياً في يوم العيد . وصح ما توقعه عندما رأى امه قد صنعت لهم الشاي ووضعت ما تبقى من طعام الأمس في وسط الحجرة وجلست هي ووالده واخوته في دائرة حوله وقد بدأوا يلتهمونه بشيء من الشره . فاتخذ مكانه بينهم وأسرع يلتهم نصيبه قبل ان ينفد من أمامه . وعندما انتهى ، مسح يديه في طرف ثوبه البالي ثم مضى الى عمله المعتاد الذي يزاوله منذ ما يقرب من ثلاثة اعوام . منذ ان اصيب والده تلك الاصابة التي أقعدته عن عمله وتركته حطاماً متداعياً .. لقد مضى يمني نفسه بسيل من اعقاب التبغ في هذا اليوم المزدحم يوم ، « العيد الكبير » .

★

كان في العاشرة من عمره وكان تلميذاً في إحدى مدارس الضاحية الاولية عندما كان ابوه يعمل باحد المطاعم الكبيرة ويتقاضى عن عمله بضعة جنيهات في الشهر ، كانت تكفي حياتهم في شيء من اليسر ، في كثير من الاحيان ، حتى ان بعض رفاقه كان يحسده على ما هو فيه من يسر بالنسبة لهم .. ولكن هذه الحال لم تدم طويلاً بل لقد تبدلت الدنيا واضحى شريداً بائساً لا يكاد يحصل على لقمة العيش إلا بمشقة وجهد . فلقد عاد في احد الايام من المدرسة فوجد بضعة من النسوة امام الحجرة التي كانوا يقطنونها ووجد امه تولول وتلطم خديها . وعرف السبب بعد قليل . عرف ان اباه قد اصيب بحروق جسيمة نتيجة انسكاب إناء كبير من الماء المغلي فوق ساقيه .. ومضت امه الى المستشفى تولول هي وبعض النسوة من اقربائهم وهو من خلفهن يبكي كلما سمع بكاء امه وصراخها وحسرتها . وهناك رحن يحاولن الدخول لكي يرين حالة والده المصاب ، ولكن البواب منعهن بقسوة وغلظة فعدن وامه تبكي وتنتحب وتندب حظها وحظ اولادها الصغار .. وبقي الوالد شهراً ونصف شهر

يعالج من حروقه . ثم أخرج ليتم علاجه في البيت لان المستشفى في حاجة الى مكانه الذي يحتله ! .. وجفت الجروح من الخارج ولكنها تركت آثارها في اعصاب ساقيه فلم يعد يستطيع ان ينتصب او يمشي ، بل ظل مقعداً عاجزاً بلا عمل ولا مورد للرزق.

وراحت امه تطرق جميع الابواب في طلب المساعدة ولكن بغير جدوى .. واخيراً لم تجد بداً من العمل في احد البيوت كخادمة ، فلما وقفت الطفلة الصغيرة التي لم تبلغ العام الاول من عمرها عقبة في الطريق لان احداً لا يرضى بمتاعبها ، اختارت مهنة اخرى تستطيع ان تؤديها دون ان تعرّض طفلتها المسكينة للموت اهمالاً وجوعاً . اختارت ان تقوم بغسل الثياب في البيوت طول اليوم او معظمه ، ثم تعود في المساء الى اطفالها الذين تركتهم في الحجرة البالية التي انتقلت اليها اخيراً .

وخرج هو من المدرسة لكي يساعد والده العاجز في القيام بعبء رعاية اخوته وتسليتهم حتى تعود امهم في المساء.. وهكذا راح هو ووالده يقاسون الجهد المر في العناية بالاطفال الثلاثة ومحاولة اسكاتهم عن البكاء كلما طالت غيبة امهم عنهم . حتى اذا ما عادت اليهم حاملة لهم بعض الخبز والطعام الذي أعطي لها ، تلقوها بفرح وابتهاج وغبطة . لقد كانوا ينتظرونها عند الباب الخارجي او في الطريق ، قبل غروب الشمس بساعات مع علمهم انها لا تحضر الا عند الغروب. وبقوا على هذه الحال شهراً ثم تبينوا ان نقودها التي تحصل عليها في نهاية اليوم لا تكفي الا طعامهم فقط فمن اين لهم اجر الحجرة المهدمة وثمن بعض لباسهم وبقية لوازمهم الضرورية الاخرى ؟

واستقر الرأي على ان يشتغل هو ايضاً خادماً في احد البيوت ، وقد وفق سريعاً الى العمل في احد بيوت الضاحية . وفرح بهذا في اول الامر لان امه واباه قد منياه بالطعام الشهي والملابس النظيفة وغير ذلك مما يشتهي . ذهب ليعمل وتولت جارة عجوز من جيرانهم ، العناية باخته الطفلة وتولى والده العناية باخويه .. وسرعان ما تكشفت له الحقيقة وعرف ان ما كان يحلم به شيء بعيد المنال . لقد ألفى نفسه مهملا لا شأن له ولا وزن . الطاهي يضربه وينهره لاقل سبب او خطأ بل وبغير سبب ولا ذنب في بعض الاحيان ، فاذا ما ذهب مرة يشكو لسيدته المشغولة دائماً بضيوفها وضيفاتها نهرته وطردته كالكلب القذر ، دون ان تسمع منه تظلمه وشكواه . فلما لم يطق هذا الهوان وترك الخدمة وفر هارباً الى بيته ثانية نهره ابوه وعادت به امه الى الجحيم من جديد . انها في حاجة الى اجره لكي يطعما الصغار الذين لا يستطيعون العمل . ولكنه لم يلبث ان هرب ثانية وهام على وجهه في الطرقات خوفاً من العقاب ، فلما عثرت عليه امه ذهبت به الى احد الكوائين ليقوم بالخدمة عنده ، وظن ان هذا سيكون خيراً له وانه سيرحم مما كان فيه من ظلم وهوان . ولكنها بضعة ايام لم يلبث الرجل بعدها ان هدده لمجرد خطأ بسيط بانه سيضربه بالمكواة اذا هو عاد الى مثل ما فعل . وأرهبه التهديد وخلع قلبه رعباً ، فعاد الى ابويه هارباً من جديد . وفشلت جهود امه وابيه في إلحاقه باي عمل آخر . لقد بات يكره هذه الأعمال ويخاف منها ويتمثل له اصحابها وكأنهم زبانية الجحيم . وكم من مرة تخيل المكواة وهي تهوي على رأسه او صدره وهي ساخنة في يد الرجل الغليظ ، فأفزعه هذا التخيل وحطم اعصابه ومزق خياله الصغير.

وانتهى به المطاف اخيراً الى الطواف بالمقاهي والطرقات باحثاً في كل شبر من الارض عن اعقاب التبغ حيث يذهب بها آخر اليوم ليبيعها ببضعة قروش يسلمها الى ابويه يتصرفان بها كما يشاءان .. انه ينحني كالكلب هنا وهناك باحثاً عن هذه الاعقاب الملقاة تحت الأقدام ، وكثيراً ما يطرده اصحاب المقاهي وخدمها ويركلونه بأقدامهم ولكنه رغم هذا يفضل هذا العمل على الذهاب الى احد بيوت السادة القساة او الى احد مثل ذلك الكواء الغليظ . لقد اعتاد مثل هذه الحياة حتى انه لم يعد يفكر في تغييرها أو تبديل شيء فيها ، اللهم إلا ذلك الحلم الذي كان يراوده بين الحين والحين وهو إن يستطيع في يوم ما ان يلبس جلباباً جديداً وحذاء وطاقية فوق رأسه ويسير في الطرقات مزهواً فخوراً ! غير ان هذا الحلم الصغير كان يتبدد تحت وقع الظروف القاسية ريثما يعود إلى مخيلته من جديد . ولقد حاول والداه أن يدخرا له بعض نقوده ليبتاعا له جلباباً جديداً يرتديه في العيد ولكنهما لم يتمكنا من ذلك وبقي بملابسه القذرة البالية . ومنذ أيام ملأت نفسه أمنية غريبة عندما مرّ امام احد محال الأقمشة ورأى رجلاً ثرياً يبتاع لولديه ملابس فاخرة ، تمنى لو أن هذا الرجل شعر بحاجته الى جلباب جديد فابتاعه له من بين ما يبتاع ! ولكن هذه الأمنية قد تبددت سريعاً من خاطره وامتلأ قلبه الصغير بشعور الهم والذل .

★

راح يدلف كالكلب هنا وهناك وتحت المقاعد والأقدام ،

وبصره الذي تراكم عليه التراب ، زائغ الى كل فم ويد لكي يحصي عدد لفافات التبغ التي ستسقط بعد قليل . ولكنه لم يكن وحده في هذه الأماكن بل كان معه غيره من الأطفال الباحثين عن لقيماتهم مثله .. وأدرك بعد قليل ان نصيبه اليوم سيكون قليلاً ، فالمقاهي تكاد تكون خالية من روادها لأنهم مشغولون بذبائحهم ونزهاتهم . اما السائرون في الطريق فلا يكادون يدخنون لشدة الزحام وتتابع سير العربات .. وخطر له ان يمضي الى متنزه الضاحية لعله يكون اليوم مملوءاً بالزائرين الذين يدخنون ، ومضى الى هناك وقد اخذ يتطلع الى كل ثوب جديد يراه والى كل حذاء . واستلفت نظره فجأة منظر جميل سال له لعابه ، فوقف يتفرج عليه تائهاً شبه مذهول . فقد رأى أمام احد البيوت الأنيقة خادماً نظيفاً وأمامه عربة صغيرة من الخشب يضع فوقها قفصاً من العنب وافاقة كبيرة مملوءة باللحم ، بينما وقف سيد البيت في أحد ممرات الحديقة الواسعة يشير الى الخادم بيده ويوصيه ببعض كلمات ليقولها لابنته التي يرسل اليها بهذه الهدية ويدعوها للمجيء في المساء .. وقف يرنو الى بعض حبات العنب التي تبدو من خلال فتحات القفص ، وريقه يتحلب وعيناه تكادان أن تلتهماها من بعيد . وما إن سار الخادم ودفع العربة أمامه حتى سار هو في محاذاته كالمسحور . ولقد تعثرت قدماه في احد منعرجات الطريق فلم يعبأ بل ظل يتتبع بناظريه ما تحمل العربة من اشياء . وفجأة هتف بالرجل في ذلة « النبي يا عم اديني حتة عنب » فنظر اليه الرجل شزراً دون ان يجيب ، فأخذ يردد طلبه ونبرات صوته تزداد ذلة وانكساراً . ولم يبال بنهر الرجل له في اول الأمر ولكنه أسرع يعدو عندما رأى الخادم يترك العربة جانباً ويبحث في الطريق عن حجر يرميه به . أخذ يعدو حتى أمن انه قد ابتعد عنه فمشى الهوينا حتى بلغ المتنزه العام . واخذ يبحث عن الاعقاب في كل مكان تخطو فيه قدماه . ولم يجد المتنزه كما كان يعتقد . لقد كان مزدحماً حقاً ، ولكن معظم رواده اليوم كانوا من الاطفال . غير انه لم ييأس بل ظل هناك ينتظر مجيء الكبار متطلعاً الى الثياب الجديدة تارة وباحثاً في الأرض تارة اخرى . وانتصف النهار دون ان يصل ما جمعه في صندوقه الى النصف ، ففكر في ان يعود ادراجه الى المقاهي لعلها تكون قد امتلأت بالرواد . وملأت نفسه رغبة قوية في ان يسلك نفس الطريق الذي جاء منه ويمر من أمام المنزل الجميل .. وعندما بلغ المنزل الانيق ابطأت خطواته ووجد نفسه يتثوب من السور حتى يلتصق به ثم يأخذ في التحديق الى الداخل في حذر . يا لله ! أي فاكهة تتلألأ بها اشجار الحديقة ؟ ان فيها اشياء كثيرة من التي يراها في محال الفاكهة وهو رائح غاد ، فيالهم من سعداء ، اولئك الذين يملكون كل هذا !

وبقي واقفاً وقد نسي نفسه ونسي ان الشمس التي توسطت السماء تكاد ان تلهب ظهره ورأسه . وأبصر سيد البيت بعد قليل يتمشى في أحد ممرات الحديقة مستظلا بأوراقها الوارفة . وعندما رآه يقترب منه في تجواله أحس بشيء من الجرأة الذليلة فاندفع يطلب منه أن يعطيه شيئاً من الفاكهة . ونظر اليه الرجل نظرة طويلة لم يفهم هو منها شيئاً . ثم رآه يسير في طريقه كأن لم يسمع منه شيئاً ، فألح في سؤاله دون ان يسمع جواباً . ورأى الرجل يصعد الدرجات الرخامية القليلة ويتجه الى الداخل . ولم يمض غير قليل حتى رأى خادم الصباح مقبلاً نحوه يسبه ويلعنه ويتوعده بيده ونظراته إن هو لم يترك السور ويمضي . ورآه يتجه الى الباب لكي يصل اليه فجرى مسرعاً هارباً من التهديد .

وفي الطريق التقى بزميل له كان يطوف معه في الماضي ثم انقطع منذ شهرين دون ان يعرف سبب انقطاعه . فأخذ يسأله عن حاله وهل وجد ابوه عملاً كما كان قد اخبره قبل غيبته . فأخبره ان والده قد وفق الى عمل في احد المخابز ولكن اجره لا يفي بحاجاتهم . اما هو فقد عمل خادماً في احد منازل القاهرة ولكن أسياده ما كادوا يجدون غيره حتى اخرجوه من خدمتهم لان في عينيه مرضاً يحتاج الى علاج حتى يستطيع ان يؤدي عمله كاملاً نظيفاً ، وانه قد حاول عند خروجه ان يأخذ جلباباً جديداً كانوا قد أحضروه له من قبل لكي يلبسه في يوم العيد ، حاول ان يأخذه معه ، ولكنهم رفضوا وضحكوا منه عندما رأوه يبكي .. ولهذا فهو اليوم يرتدي جلبابه البالي الذي لا يملك غيره ..

فقال هو لزميله في لهجة يائسة وقد بدت كلهجة رجل مجرب بائس : « يا خي يا ابني . خلي العيد للناس السعدا .. » وساروا معاً في الطريق الذي ألهبته اشعة الشمس المحرقة ، لا يستظلان بشيء ، وعلى وجهيهما شحوب داكن وفي عيونهما ذل وانكسار ..

حلوان — مصر

امينة قطب